

11 للمرحوم ا عبد الوهاب المسيري

إن تقسيم العمل بين النخبة الحاكمة والشعب الأمريكي أدت إلى أن الإنسان الأمريكي أصبح يهتم بشؤونه المباشرة ولا يكثر كثيراً بالسياسة الخارجية لبلده، والتي تنزفها بشرياً ومالياً. من ناحية ثانية ينبغي ألا ننسى أن الإنسان في الإطار العلماني المادي يصبح إنساناً اقتصادياً وجسدياً، أي إنساناً يؤمن بالقضايا المباشرة التي تخصه بشكل مباشر، أما "الإطار الجامع" و "الكلي" لهذه القضايا كالسياسة الخارجية التي تؤثر في الشعب الأمريكي بدرجة كبيرة، وإن كان بشكل غير مباشر، فهو لا يفهمها ولا يكثر بها! وظاهرة عدم الاهتمام بالسياسة الخارجية وعدم إدراك تضميناتها ظاهرة حديثة وعالمية ولكنها توجد بشكل أقل في بلد مثل إنجلترا وفرنسا، إلى أن نصل إلى بلد مثل روسيا حيث نجد أن الناس هناك عندهم درجة أعلى من الوعي السياسي. ومع هذا أجري استطلاع للرأي في إنجلترا فظهر أن غالبية من شملهم الاستطلاع يظنون أن الإسرائيليين هم أصحاب الأرض وأن الفلسطينيين يحاولون اغتصابها منهم!

ومع هذا إحقاقاً للحق، يجب أن نشير إلى أن الشعب الأمريكي عادة ما يدرك حقائق الأمور بالتدرج، ويحاول إيقاف عريضة جيوش الأمريكية، كما حدث في حرب فيتنام، وكما يحدث الآن (عام 2008) في انتخابات الرئاسة الأمريكية، إذ بدأ المرشحون الديمقراطيون يتحدثون عن ضرورة التغيير والانسحاب من العراق، وذلك حتى يكسبوا الأصوات. ومع هذا يجب أن نطرح السؤال التالي: هل سينجح المرشح الديمقراطي، إن وصل إلى البيت الأبيض، في تنفيذ وعوده الانتخابية، أم أنه سيخضع لضغوط شركات السلاح الكبرى والمؤسسة العسكرية وشركات البترول؟

ويلاحظ أن هناك فارقاً بين أمريكا منذ أكثر من 30 سنة و أمريكا حالياً، ولكنها ليست فروقاً جوهرية، لأنني أعتقد أن الذي يسيطر على الولايات المتحدة هي الرؤية "الاستهلاكية المادية" حيث ينظر للإنسان باعتباره مجموعة من الاحتياجات المادية أو الجسدية. حدثت بعض التغيرات في السياسة لكن في الرؤية العامة لم يحدث أي تغيير. كل ما في الأمر أن حلقات المتتالية العلمانية أخذت في التحقق. خذ على سبيل المثال مسألة الشذوذ الجنسي، حينما ترنت أمريكا عام 1969 كان الشذوذ موجوداً، كما هو الحال في كل المجتمعات الإنسانية، لكننا كنا نهمس حين نتحدث عنه. ثم بدأت قضية الشذوذ تتحرك من الهامش إلى أن وصلت إلى المركز. ولكن بعد ذلك مع تصاعد معدلات التوجه نحو اللذة والاستهلاك ومع اتساع رقعة النسبية الأخلاقية، بدلا من المطالبة بالتسامح مع الشذوذ تحولت القضية إلى ضرورة تطبيع الشذوذ أي المساواة الكاملة بين الإنسان العادي والإنسان الشاذ. ثم تطور الأمر وتزايدت المطالبة بأن يكون الزواج المثلي زواج شرعي، وأن يحصل أعضاء الزواج المثلي على نفس الحقوق التي يحصل عليها الأزواج العاديون، بما في ذلك حق تبني الأطفال. ولنتخيل طفلاً ينشأ في أسرة مكونة من رجلين أو امرأتين، أليس هذا إجحافاً لحقه في أن تكون حياته عادية مثل حياة معظم البشر عبر التاريخ. ما أود أن أؤكد أن ما يحدث في المجتمع الأمريكي لم يحدث فجأة ولم يأت من القمر، وإنما كان كامناً في منظومة العلمانية الشاملة ومن ثم يجب ألا نتوقع أي تغيير حقيقي في الوجدان السياسي للشعب الأمريكي إلا مع حدوث زلزال قوي.

وقد بدأت إدارة بوش تطرح نفسها على أنها إدارة تبغي الإصلاح وتريد نشر الديمقراطية والدفاع عن حقوق الإنسان، وفي تصوري أن مقولة "الإصلاح" في المنظور الأمريكي لا تختلف عن مقولات أخرى، مثل مقولة "حقوق الإنسان" و "المرأة" و "الديمقراطية"... ومؤخراً مقولة "معاداة السامية"، كلها مقولات استعملتها الولايات المتحدة كـ "آليات" للمهينة على العالم، وعلى العالم العربي بشكل خاص! فـ "ليبيا"، على سبيل المثال، كانت إلى حد قريب تصنف على أنها جزء من "محور الشر" في العالم. ولكن حينما استسلمت لأمريكا ولتقت بـ "أسلحتها" جانباً، غضت أمريكا الطرف عنها وخرص لسانها عن مطالبتها بالإصلاح، بل لم يقف الأمر عند حالة "السكوت" بل تقدمت العلاقات الليبية الأمريكية خطوات إلى الأمام في مجال التبادل الدبلوماسي والتجاري بينهما، وفي مجالات أخرى.

المسألة في رأيي ليست إصلاحاً حقيقياً، إنما هي محاولة لتهيئة عن طريق مقولة "الإصلاح"، تماماً مثل الطريقة الانتقائية التي كانت الولايات المتحدة تتعامل بها مع مسألة "حقوق الإنسان" في العالم. حيث كان تقديم المصالح الأمريكية الاستراتيجية الثابت الأساسي في تعاطيهم لـ "حقوق الإنسان" في العالم كله، أليست- على سبيل المثال لا الحصر- الإدارة الأمريكية هي التي أسقطت مصدق الديمقراطية الليبرالي وناصرت الشاه ممثل الاستبداد الشرقي، كما يقولون ومن الذي قتل سلفادور اليندي في تشيلي في 11 سبتمبر 1974. هم يتحدثون دائماً عن 9/11 / 2000 ولا يذكرون قط 9/11 / 1974 الأخرى أو الأولى التي اعتلى بها الدكتاتور والجزار بينوشيه سدة الحكم بمساعدة الولايات المتحدة، وظل معتلياً عرش الإرهاب والذبح أكثر من عشر سنوات. ولننظر ماذا يفعلون الآن في العراق في أبو غريب والحديثة وغيرها من الأماكن التي تم اكتشافها والإعلان عنها. هل كانت كل هذه الحوادث الإجرامية يمكن أن تتم دون نور أخضر من القيادة السياسية الأمريكية الداعية للإصلاح الديمقراطي والمدافعة عن حقوق الإنسان؟ لا يوجد التزام أمريكي مبدئي وأخلاقي بالمقولات الديمقراطية أو الأخلاقية، فكل شيء يوظف في خدمة المصالح الأمريكية حتى لو كان فيها مس بكرامة الإنسان وانتهاك لحقوق الشعوب الأخرى! ولتنظري إلى جواتنامو وأبو غريب، والأهم من هذا انظري إلى تاريخ الولايات المتحدة الإمبريالي.

وتاريخ الاستعمار يبين بجلاء وقوفه في مواجهة أي محاولة لتحديث وتطوير البلاد التي يستعمرها، وقد ظهر ذلك بشكل واضح وجلي في الجيب الاستيطاني في الجزائر، إذ إنه ظهر بعد أن رحل المستعمر الفرنسي أنه لم يكن في الجزائر إلا بضعة أطباء ومهندسين. أثناء حرب الخليج الأولى كانت الولايات المتحدة تردد دوماً بأنها ستضرب العراق إلى أن تعود به إلى حالة ما قبل الثورة الصناعية، وهناك الكثير من الأمثلة التاريخية التي تدل على أن سلوك الولايات المتحدة ليس استثناءً للقاعدة، وإنما جزء من نمط غربي عام. ولنتذكر ماذا فعل التحالف الغربي ضد محمد علي الذي كان يحاول تحديث مصر والدولة العثمانية. ومن أهم الأمثلة الأخرى وقوف القوات البريطانية ضد أحمد عرابي الذي كان يمثل الرؤية الديمقراطية الحديثة ووقفوا إلى جانب الحديوي ممثل الرؤية الشمولية. لكن يبدو أن الغرب في الوقت الحاضر وجد أن عملية التحديث والديمقراطية "المحكومة" قد تؤدي إلى بروز نخبة حاكمة مرنة يمكن التفاهم معها، ويمكن أن تحول الشعب العربي إلى شعب ينسى كل القيم مثل الكرامة والعزة والقومية بحيث يطبق عليه السقف المادي ويصبح ذي توجهات اقتصادية وجسدية ومادية تجعله أكثر استعداداً للتعاون مع إسرائيل، وعندها تصبح القضية متعلقة بالأسواق وليست قضية قومية أو قضية أمن عربي. وقد يكون في تصور القوى الغربية في سعيها لتهيئة أن الديمقراطية من شأنها أن تخلق حالة من الفوضى تسمح بتقسيم العالم العربي كما يحدث في العراق. وهي الآن وبعد فوز حماس في انتخابات المجلس التشريعي في حالة إعادة النظر لرسم سياسات جديدة لتحقيق نفس الأهداف الاستراتيجية بعيداً عن المفهوم المتعارف عليه للديمقراطية المقتل في الأغلبية وفي أن لكل إنسان صوت. فالديمقراطية في المفهوم الغربي تعطي الحقوق السياسية لمن يخدم المصالح والرؤية الأمريكية والغربية ولا يقاوم الهيمنة الأمريكية والغربية.



ISSN 2170-0796